36 - ـ فصل : حقيقة الذهد .

بلغني عن بعض زهاد زماننا أنه قدم إليه طعام فقال : لا آكل فقيل له : لم ؟ قال : لأن نفسي تشتهيه و أنا منذ سنين ما بلغت نفسي ما تشتهي .

فقلت : لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين و سبب خفائها عدم العلم .

أما الوجه الأول : فإن النبي صلى ا عليه و سلم لم يكن على هذا و لا أصحابه و قد كان عليه الصلاة و السلام يأكل لحم الدجاج و يحب الحلوى و العسل .

و دخل فرقد السبخي على الحسن و هو يأكل الفالوذج فقال : [يا فرقد ما تقول في هذا] ؟ فقال [لا آكله و لا أحب من أكله] فقال الحسن : [لعاب النحل بلباب البر مع سمن البقر هل يعيبه مسلم ؟] .

و جاء رجل إلى الحسن فقال : [إن لي جارا لا يأكل الفالوذج] فقال [و لم ؟] قال يقول : [لا أؤدي شكري] فقال [إن جارك جاهل و هل شكر الماء البارد ؟] .

و كان سفيان الثوري يحمل في سفره الفالوذج و الحمل المشوي و يقول : [إن الدابة إذا أحسن إليها عملت] .

و ما حدث في الزهاد بهدهم من هذا الفن فأمور مسروقة من الرهبانية و أنا خائف من قوله تعالى : { لا تحرموا طيبات ما أحل ا لكم و لا تعتدوا } .

و لا نحفظ عن أحمد من السلف الأول من الصحابة من هذا الفن شيء أن يكون ذلك لعارض .

و سبب ما يروى عن ابن عمر Bهما : أنه اشتهى شيئا فآثر به فقيرا و أعتق جاريته رميثة و قال : [إنها أحب الخلق إلي] فهذا و أمثاله حسن لأنه إيثار بما هو أجود عند النفس من غيره و أكثر لها من سواه .

فإذا وقع في بعض الأوقات كسرت الفعل سورة هواها أن تطغى بنيل كل ما تريد .

فأما من دام على مخالفتها على الإطلاق فإنه يعمي قلبها و يبلد خواطرها و يشتت عزائمها فيؤذيها أكثر مما ينفعها .

و قد قال إبراهيم بن أدهم : إن القلب إذا أكره عمى و تحت مقالته سر لطيف و هو أن ا D قد وضع طبيعة الآدمي على معنى عجيب و هو أنها تختار الشيء من الشهوات مما يصلحها فتعلم باختيارها له صلاحه و صلاحها به .

و قد قال حكماء الطب : ينبغي أن يفسح للنفس فيما تشتهي من المطاعم و إن كان فيه نوع ضرر لأنها إنما تختار ما يلائمها فإذا قمعها الزاهد في مثل هذا عاد على بدنه بالضرر .

و لولا جواذب الباطن من الطبيعة ما بقي البدن فإن الشهوة للطعام تثور فإذا وقعت الغنية بما يتناول كفت الشهوة .

فاشهوة مريد و رائد و نعم الباعث هي على مصلحة البدن .

غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى و متى منعت ما تريد على الإطلاق مع الأمن من فساد العاقبة عاد ذلك على النفس بالفساد و وهن الجسم و اختلاف السقم الذي تتداعى به الجملة مثل أن يمنعها الماء عند اشتداد العطش و الغذاء عند الجوع و الجماع عند قوة الشهوة و النوم عند غلبته حتى إن المغتم إذا لم يتروح بالشكوى قتله الكمد .

قهذا أصل إذا فهمه هذا الزاهد علم أنه قد خالف طريق الرسول صلى ا عليه و سلم و أصحابه من حيث النقل و خالف الموضوع من حيث الحكمة .

و لا يلزم على هذا قول القائل : فمن أين يصفو المطعم ؟ لأنه إذا لم يصف كان الترك ورعا و إنما الكلام في المطعم الذي ليس فيه ما يؤذي في باب الورع و كان ما شرحته جوابا للقائل : ما أبلغ نفسي شهوة على الإطلاق .

و الوجه الثاني : أني أخاف على الزاهد أن تكون شهوته انقلبت إلى الترك فصار يشتهي ألا يتناول و للنفس في هذا مكر خفي و رياء دقيق فإن سلمت من الرياء للخلق كانت الآفة من جهة تعلقها بمثل هذا الفعل و إدلاها في الباطن به فهذه مخاطرة و غلط .

و ربما قال بعض الجهال : هذا صد عن الخير و عن الزهد و ليس كذلك فإن الحديث قد صح عن النبي صلى ا عليه و سلم أنه قال : [كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد] .

و لا ينبغي أن يغتر بعبادة جريح و لا بتقوى ذي الحويصرة و لقد دخل المتزهدون في طرق لم يسلكها الرسول صلى ا عليه و سلم و لا أصحابه من إظهار التخشع الزائد في الحد و التنوق في تخشين الملبس و أشياء صار العوام يستحسونها .

و صارت لأقوام كالمعاش يجتنون من أرباحها : تقبيل اليد و توفير التوقير و حراسة الناموس .

و أكثرهم في خلوته على غير حالته في جلوته .

و قد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة و إذا خلا بالليل فكأنه قتل أهل القرية .

فنسأل ا تعالى علما نافعا فهو الأصل فمتى حصل أوجب معرفة المعبود D و حرك إلى خدمته بمقتضى ما شرعه و أحبه و سلك بصاحبه طريق الإخلاص .

و أصل الأصول ـ العلم و أنفع العلوم النظر في سير الرسول صلى ا عليه و سلم و أصحابه { أولئك الذين هدى ا فبهداهم اقتده }